قوة الإرادة[1]

خطر لي أن أبتدع في التجارة بدعة حسنة، فاخترت أن أتاجر بالأخلاق النافعة للمصريين، فاقتديت بأولي الخبرة والنظر البعيد من التُّجار إذا عزموا الاتجار بسلعة من السلع في بلد من البلدان، توخوا حاجة السوق، واستقصوا عادات أهل البلد، ثم يقدمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد في رواج بضاعتهم. فتوخيت حاجة السوق في مصر، وتقصيت عادات المصريين، وفتشت عن الخلق الذي ينقصهم أكثر من أي خلق سواه، فعلمت أنه قوة الإرادة، فعوَّلت على أن يكون اشتغالي بهذا الصنف من الأخلاق.

وراقني هذا الخاطر، فمنيت نفسي رواجًا سريعًا وربحًا جزيلًا، وأنني سأكون أنفق تجارة وأكثر عائدة من المتاجرين بيننا بالوطنية والدين؛ لأن حاجتنا إلى الوطنية والدين أقل من حاجتنا إلى الأخلاق ولا سيما قوة الإرادة. وفي مصر كثير من الوطنيين والمؤمنين، ولكن قلَّ فيها من كملت عليهم نعمة الأخلاق فغنوا فيها عن المزيد. وذهبت أُحصي أرباحي ومكاسبي في السنة الأولى، فالسنة الثانية، وفي السنين التالية فضاق بها الحصر ولم يستوعبها الحساب، وسرني أن أحلم بأنه سوف لا يكون في الاثني عشر مليونًا الذين يسكنون وادي النيل مصري واحد إلا لديه مقدار كبير أو صغير من تجارتي، فقلت: إنها والله للتجارة التي لا تبور.

واكتريت الدكان في أوسع أحياء العاصمة وأحفلها بالسابلة والقطان، وزخرفته أيما زخرفة، فصفحته بالبلور، وغشيت جدرانه بالذهب، وصنعت رفوفه من خشب الهند،

[1] من مقالات الشذور التي طبعت سنة ١٩١٥.

ونقشت عليه لوحة من أجمل ما خط الكاتبون، كتبت عليها «هذا دكان قوة الإرادة. يعطيك على نفسك سلطانًا لا حد له»، ثم جلست على بركة الله أشمر للتعب والعمل وأخففهما عني بما أرجوه من المنفعة لي وللناس.

فكان أول من سنح لي في صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد تخالعت أعضاؤه من الوهن، واحمرَّت عيناه من السهر، وانعقد لسانه من الخمر، فوقف قبالة الدكان يترنح ذات اليمين وذات الشمال، وأوشك أن يميل على ألواح البلور، فيحطمها ويكدر علينا صباح الاستفتاح بطلعته المشئومة. ولو كنت ممن يتطيرون لأغلقت دكاني لساعتي وجزمت بالفشل، ولكنني تصبرت ولبثت ألاحظه وهو تارة يحملق إليَّ وتارة يتهجى العنوان حرفًا حرفًا حتى أتى على حروفه بعد شق النفس، ثم قال لي وكأن روحه تصعد مع كل كلمة: أأنت صاحب الدكان؟ قلت: نعم، قال: أنت بعينك؟ قلت: أنا هو بعيني لا سواي، قال: وتبيع قوة الإرادة؟ قلت: من جميع الأصناف والأثمان. قال: ولنا أيضًا تبيعها؟ لا تؤاخذني فإني أحب أن أسأل، قلت: أجل، لك ولكل من يشتريها.

قال: فأنا أسهر كل ليلة كما ترى وأسكر وأقامر وأجيء في هذه الساعة فيثقلني النوم ولا أحب أن أنام، فهل عندك صنف من الإرادة أتسلط به على النوم ويقويني على السهر ليل نهار؟

قلت: ليس هذا الصنف من الأصناف الموجودة، ولو وُجد لما بعناه ونحن باعة الأخلاق لا نقل في الأمانة لصناعتنا والحفاظ بذمتنا عن الصيادلة. وقد تعلم أنت أن الصيادلة لا يبيعون كل دواء لكل طالب، ولكن عندنا أصنافًا أصلح لك من هذا الصنف، فهل لك فيها؟

قال: أرنيها.

فسردت له أسماء الأصناف التي في الدكان، وأريته كل صنف منها في علبته ولم آله تفصيلًا لفوائدها وترغيبًا فيها، وبسطت له أسماء الإرادة المانعة وخواصها منع الناس عن مقارفة العادات الضارة؛ من التدخين إلى المقامرة، ومن الكذب إلى الوقيعة. وتختلف المقادير والأثمان، باختلاف الإدمان والأزمان.

وأصناف الإرادة العاملة وخواصها إيلاء الناس عزيمة وصبرًا على تذليل مصاعب الأعمال وتحقيق همامات الأنفس. وأرخصها قضاء المرء واجبه، وأنفسها قضاؤه واجب أمته ونوعه. وهي أغلى من الإرادة المانعة؛ لأن القدرة على أداء الواجب أندر من القدرة على اجتناب المحظور. وأعلى من هجرك ما تؤاخذ به، فعلك ما تحمد عليه. وعددت له

أسماء نفر من عظماء الرجال الذين دفعتهم قوة الإرادة ودفعت بهم أممهم إلى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذرى، وأطنبت في الوصف والتحسين وهو يصغي إليَّ بما بقي في حواسه من الانتباه، فأطمعني إصغاؤه في أن يكون أول تجربة ناجعة وأصدق إعلان عن الدكان. ورأيته يطرق مليًّا ثم قال: ولكن من يضمن لي جودة الأصناف، ويكفل نقاوتها من الأخلاط والأوشاب؟

فقلت في نفسي: سبحان الله! هذا الذي يذهب كل ليلة إلى الخَمَّار لا يسأله أيسقيه سمًّا أم خمرًا، ويغشى موائد القمار يخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق إليها بغير سائق لا يريد أن يشتري قوة الإرادة إلا بضامن؟ ولكنني جاريته وقلت: لا خوف عليك من هذه الجهة، فسأعطيك علبة نموذجًا فجرِّبها وسل من شئت من التجار، ولك بعد ذلك الخيار.

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد إلي في اليوم الثاني مفيقًا صاحيًا، فجلس بتؤدة وأدب وقال لي: لقد تعاطيت أمس علبتك ولم أعاقر ولم أقامر، ولا أدري أبفضل العلبة ذلك أم لنفاد المال مني. وكنت إذا نفد المال مني اقترضت، فلم أقترض أمس، فلا أدري أيضًا أكان ذلك قوة في الإرادة أم حياء من الرفض. وكنت لا أستحي فلا أدري والله أكان حيائي خُلقًا جديدًا اكتسبته منذ تعاطيت قوة الإرادة أم هو لتكرار الطلب واليأس من الإجابة:

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يومًا سيحرم

على أنني سألت التجار تاجرًا تاجرًا، فاستغربوا اسم الصنف ولونه ورائحته ومعدنه، واتفقوا على أنهم لم يسمعوا به لا في الشرق، ولا في الغرب، ما عدا التاجر فلانًا فقد عرفه وفحصه قليلًا فرده إليَّ مشمئزًّا وهو يقول: خذ يا شيخ! فقد سئمنا هذا السخف والتدجيل! وهل فرغ الناس من سلطان الهموم، فيسلطوا عليهم قوة الإرادة أيضًا؟ وإذا كانت عوائق الدهر تحرمك شطرًا من ملذات الحياة، وأنت تحرم نفسك الشطر الباقي، فأنت لا شك الذي يقال فيه: إنه عدو نفسه، فخل عنك هذه الأضاليل، ولا يغرنك ما تقرأ من العناوين وما تسمع من المواعيد، فلو كان في هذه التجارة خير لما غفل عنها الناس إلى اليوم، ولم ينسها دهاقين التجار الأزمان المتطاولة لتكون بدعة من بدع هذا الزمان المنكود.

فأسكتُّ هذا المهذار وندمت على التفريط في العلبة، وكان أعجب ما عجبت له كلام ذلك التاجر؛ لعلمي بأنه ممن يميزون أمثال هذه الأصناف ويحسون نقص السوق فيها. ولم يكن بيننا مجاورة أو مشاركة، فخفي عني غرضه من تبغيض الناس في بضاعة ليس بيني وبينه منافسة عليها، ولكني وقفت فيما بعد على سبب ذلك، وهاك بيان ما وقفت عليه: رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدَّر لها الربح الطائل والرواج السريع، ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها. شأن الأعلاق النادرة؛ تزييفها كثير والغش فيها جائز؛ وذاك لأن عارفيها معدودون، ولأن جاهليها يحكمون عليها باللون والرونق، وليس بالثمرة والجوهر. فقرر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة، ويختص نفسه بذلك الربح، فما وني دون أن فتح له دكانًا تجاه دكاني، وتأنق في تزويقه وتنظيمه، وكتب عليه: «هذا دكان قوة الإرادة الصحيحة، يعطيك سلطانًا لا حد له على ملذات الحياة.»

فتح الدكان واستأجر له دلالًا سليطًا يفتأ سحابة النهار، يصرخ بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول: يا طالب الإرادة الصادقة، حي على الغنيمة قبل فواتها، يا عُشَّاق العزيمة الماضية، هلموا إلى أعظم معمل للعزيمة الماضية من معدنها، هيا إلى أرخص سلعة سعرًا، وأسرعها فعلًا، وأصمدها على الطوارئ أثرًا. إرادة لا تتكاءدها[٢] عقبة، ولا تصدها عن غايتها طلبة. فمن اشتهى السكر فصدته عنه مرارة الراح فليشترِ من هذا الدكان فيستعذب تلك المرارة، ويعاف عندها كل حلاوة، ومن صبا إلى الشهوات فأشفق من عقابيلها ومغباتها زودناه بقوة إرادتنا، فأصبح لا يحفل بالعذل والملام، ولا يبالي بالضيم والسقام. ومن تورط في القمار ثم تهيب خشية الإملاق والدمار، ومخافة الفضيحة والعار، فعندنا ما ينزع منه تلك المخافة، ويضحكه من هواجس تلك الخرافة. وعندنا لكل مريد إرادة، ولكل إرادة شهادة. فالبدار البدار! قبل غلاء الأسعار؛ فاليوم بدرهم وغدًا بدينار.

فما شككت في أن المسكين معتوه قد خسر رأسه، وسوف يخسر رأس ماله، وتوقعت له الخراب الجائح القريب، إذ من أين له أن يزاحمني في تجارتي وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد، وأنا أبيع إرادة الجد والعمل، وهو يبيع إرادة اللهو والكسل. ولكن سرعان ما

[٢] تكاءدته العقبة: وقفت في طريقه.

أخطأ حسابي وارتد عليَّ تكهني. وما راعني إلا الجماهير على أبوابه يتكوفون[٣] وبضائعه في كل وادٍ تسير، بحيث لم تخلُ منها المدينة والقرية، والبيت والحانوت، والحانة والنادي، ولم ينتهِ الشهر حتى فتح دكانًا جديدًا إلى جنب دكانه، ودار الحول فكان له في الحي خمسة دكاكين، وأصبح أعظم تاجر في الديار.

أما أنا فقد أعطيت في اليوم الأول تلك العلبة لذلك السكران، فكانت أول وآخر ما صدر من دكاني. ومرت أيام وأيام، وتلتها شهور وشهور، وتمت ثلاث سنوات مجرمات،[٤] وأنا بتلك الحال أراقب التلف يدب في بضاعتي، وأعاين السوس ينخر في إرادتي — وما الإرادة إلا كالسيف يصدئه الإهمال ويشحذه الضراب والنزال — فدهشت وغضبت، ثم صبرت وتعللت، ثم يئست وسلمت، فأقفلت الدكان وطلقت التجارة، وها أنا ذا أسأل عن المحكمة لأودعها الدفاتر والمفاتيح.

[٣] يجتمعون.

[٤] السنة المجرمة: الكاملة.